

الانتماء الهوياتي الفردي وأبعاده الفكرية، الاجتماعية والثقافية.

The individual identical affiliation and its intellectual, social and cultural dimensions.

زكرياء يخلف *

¹ مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ في الجزائر-جامعة أبو القاسم سعد الله -الجزائر 2
zakarya.yekhllef@univ-alger2.dz

تاريخ القبول: 2021/12/ 20

تاريخ الإرسال: 2021/05/ 10

ملخص:

يهدف المقال إلى تحليل مفهوم "الانتماء الهوياتي" للفرد وأبعاده الفكرية، الاجتماعية والثقافية فالبحث يركز على العلاقة بين مفهوم "الهوية" و "الانتماء" ثم تحديد المعاني المنطوية تحت هذا الأخير وكذا الآليات التي تتشكل بها أبعاده الثلاث: الفكرية، الثقافية والاجتماعية، إضافة إلى ذلك يتطرق المقال إلى بحث بعض المشكلات الفكرية التي يثيرها الانتماء الهوياتي الفردي. ويعتمد البحث على التحليل المنطقي كأداة منهجية لتحليل المصطلحات واستكشاف المعاني المضمرّة تحت هذا المفهوم، ومن جملة النتائج المتوصل إليها هو أن الانتماء الهوياتي عملية معقدة تحصل نتيجة تقاطع مجموعة من الانتماءات الفرعية التي تحدد خصوصية الهوية الثقافية الفردية. الكلمات المفتاحية: هوية ثقافية؛ إنتماء فكري؛ إنتماء ثقافي؛ اختلاف؛ مشاركة.

Abstract

The present article endeavors to analyze the concept 'Identical affiliation' of individual and its intellectual, social and cultural dimensions. The research focuses on the relation between the two conception 'identity' and 'affiliation' defining the latter's signification as well as the mechanisms by which the three types of patriotism are formed. The article also examines some of the intellectual problems raised by identical affiliation.

The study relies on conceptual analysis as a logical methodological tool and the exploration of the implicit meanings under their concept. Throughout this study, we hypothesis that identity affiliation is a complex process that accure as a result of the intersection of group of sub-affiliation that defines individual cultural identity.

Keywords

Cultural identity; Intellectual affiliation; Cultural affiliation; Diversity; Sharing.

1- مقدمة

يعد موضوع "الهوية" وارتباطاته الإشكالية أحد أهم الموضوعات المطروحة في مجال العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ولا يخفى على باحث في هذا المجال غموض مصطلح الهوية وضبابيته، فهو كغيره من المفاهيم الميتافيزيقية ذو معانٍ مختلفة ومواقف متباينة إزاءه، ومصطلح الهوية إذا ما ذُكر في هذه المجالات البحثية إقترن مباشرةً في معناه بالمهية الإنسانية؛ التي كانت ولا تزال موضوعاً للتساؤل الفكري والتأمل النقدي، ويُعدُّ مفهوم "الانتماء" أحد المفاهيم الأساسية المُشكِّلة لمعنى الهوية وأكثرها ارتباطاً معه، لأن هوية الذات الفردية تتشكل من خلال تقاطع جملة من الانتماءات التي تُحدِّد خصوصيّتها وموقعها في الوجود، وحرّني بنا في هذا المقال إيضاح مفهوم "الانتماء الهوياتي" من خلال إحداث مقارنة مفهومية بغية إستجلاء المعاني المُضمرة تحته وتبيان كميّات تشكُّله، ولما كان الإنسان يتَّسم بتعددية الانتماء؛ استلزم علينا التطرق بالتحليل للأبعاد الفكرية، الاجتماعية والثقافية المُشكِّلة للانتماء الهوياتي، والسؤال الإشكالي الذي يمكن طرحه في هذا السياق هو: كيف تتشكل الانتماءات الفكرية، الاجتماعية والثقافية وتتقاطع فيما بينها لتشكل الانتماء الهوياتي الخاص للفرد؟

2- الانتماء إلى دائرة الإنسانية

قبل التطرق إلى مفهوم الانتماء وأبعاده الفكرية، الاجتماعية والثقافية، حري بنا الحديث عن الانتماء الأول الذي يجمع كل أفراد النوع البشري ويضفي عليها هويةً؛ وهو الانتماء إلى دائرة الإنسانية، من خلال إبراز المشترك بين الذوات المفكرة بغية تمييزها عما سواها، ومن أهم السمات وأبرزها هو التشارك في الموروث الوراثي الذي يضمُّ جميع الصفات الموحّدة لبني الإنسان مثل البنية المورفولوجية الجسدية والدماغ البشري بغض النظر عن الاختلافات العرقية، الإثنية والأيدولوجية، فالدماغ البشري مكَّن الإنسان دون غيره من الأنواع الحية الأخرى من ممارسة جملة من الوظائف مثل التفكير وإبداع اللغات الخاصة التي مكَّنته من التواصل؛ تَمَثُّلُ العالم في أنساق لغوية متميزة والتَّعبير عما يدور في خُلده، لذلك يوصف الإنسان في كثيرٍ من الأحيان بالكائن الرمزي لأنه الوحيد القادر على التعبير عما يفكر فيه ويخالجه شعوريا بطريقة لغوية رمزية، بالإضافة إلى كونه الكائن الوحيد الذي يدرك بُعدي المكان والزمان، فيعيش ماضيه، حاضره ومستقبله في أمكنة ومواقف متعددة؛ إذ أن ماضيه يُحايثُ حاضره شعوريا، وكلاهما يلعبان دوراً أساسياً في تشكيل مستقبله، فالتفكير واللغة بالإضافة إلى وعي الزمن هي أهم السمات التي تجمع بني الإنسان وتميزهم عن غيرهم من الكائنات الحية الأخرى.

فسمي التفكير وإنشاء اللغة مكَّنتا الإنسان من تشكيل منظومة من الأفكار والمعتقدات التي بدورها تشكل الوعي، والذي يصفه <إدغار موران> (Edgar Moran) بأنه أروع انبثاق للذهن البشري، يتصف بكونه مُنَجَّجاً ونتاجاً للعقل الإنساني في الآن نفسه، كما يُمْكِّنُ الإنسان من أن

يكون موضوعاً لنفسه دون أن يكف عن بقائه ذاتاً (موران، 2009، صفحة 51) فتشكل الوعي من خلال تَكُونٍ منظومةٍ من الخيالات والأفكار والمعتقدات يُبلور نظرة خاصة للوجود هو ما يضيف على الإنسان هوية تجعله مُتميّزاً عن غيره.

إن صفة الوعي الإنساني تحيلنا إلى فكرةٍ أساسيةٍ مفادها: الاعتراف بالغير كمشاركٍ للأنا في الوعي والوجود، إذ كلاهما يتشاركان في اكتساب الهوية والانتماء إلى دائرة الإنسانية، كما أن التشارك في الغايات والقيم الإنسانية العليا كحب الحق، الخير والجمال إضافةً إلى نشود السعادة والنفور من كل ما من شأنه أن يكون شراً ويُسبب ألماً هو خاصّةُ الأنا والغير معاً، أو خاصّةُ الإنسان، ضف إلى ذلك أنهما يتشاركان الوجود في هذا العالم؛ الذي هو مجال السعي والفعل، مجال التأثير والتأثر ومحور إلتقاء الذات بالغير، فتشاركُ الذات والغير في الإنسانية وتواجههما في مجالٍ واحدٍ هو العالم، يُمكنُ الإنسان من لعب أدوارٍ تبادليةٍ والقيام بعمليةٍ تحويلٍ تماثليٍّ في علاقة الذات بالغير، فالأنا هو غيرٌ بالنسبة لذاتٍ أخرى، وعلى عكس ذلك، يكون الغير هو أنا آخر (Alter ego) بالنسبة لذاتي، وفي فكرة المشاركة الوجودية للذات والغير يقول <جون بول سارتر> (Jean-Paul Sarter): <>...الآخر موجودٌ ضمنياً في الواقع، وفي صميم هذا الواقع، أي شيءٍ بالفعل أكثر واقعيّةً من الآخر؟ إنه جوهرٌ مفكّرٌ لديه الماهية ذاتها التي لدي، ولا يمكن أن يتلاشى عبر تحوُّله إلى كيفياتٍ ثانويةٍ وكيفياتٍ أوليةٍ، وأجد بناءً الأساسية فيّ أنا.>> (سارتر، 2009، صفحة 313).

إن سمة الوعي ليست هي الخاصّة المميّزة للنوع البشري فحسب، بل الإنسانية تتعدى العقل إلى المشاعر، فالإنسان كائن وجداني تتنوع إنفعالاته وردود أفعاله العاطفية بحسب المواقف الوجودية المختلفة التي يعيشها، فالفرح والتفاؤل قد يكونان دافعاً قوياً لإنتاج إنسانيٍّ غير محدود، كما أن الحزن والتشاؤم قد يُدخلان الإنسان في حالة إكتئابٍ تكون سلباً لكل ما هو إيجابي في حياته، وما يمكن التأكيد عليه هو أن المشاعر الإنسانية تعتبر حلقة ربطٍ تجمع البشرية بعضها ببعض، وبدونها لا يكون للتعاطف والتضامن مع الغير أو مُعَايشة حالته النفسية أي معنى.

علاوةً على الوعي والمشاركة الوجدانية، يتّسم الإنسان كذلك بكونه كائناً اجتماعياً، لا يعيش في جماعةٍ فحسب، بل يرتقي في اجتماعه إلى مستوى التنظيم والتنظير الاجتماعيين، إضافةً إلى تقسيم العمل الاجتماعي وإدراك العلاقات وكيفية التعامل مع أفراد المجتمع، والرقى إلى درجة المدنية (Le civisme) كصورةٍ مُميّزةٍ للإجتماع البشري، وبلوغ درجة المواطنة التي تضمن الحريات وتقتضي معرفة الحقوق والواجبات، حتى يتمكن الفرد من تحمل المسؤولية وتحقيق الفاعلية الاجتماعية، وعلى الرغم من أن المجتمعات البشرية مُتفاوتةٌ في التحديث، إلا أن الإنسان له القابلية للإرتقاء في صورة مجتمعه إذا ما التزم بالقوانين المدنية والأخلاقية التي تضبط صورة العلاقة بينه وبين غيره في المجتمع.

لكن على الرغم من اشتراك الجماعات الإنسانية في الهوية البشرية والتشابه في بنيتها المورفولوجية وتأسيسها للبنى النفسية، اللغوية، الثقافية وتنظيمها الاجتماعي، إلا أنها تختلف في نفس ما تتشارك فيه، إذ الاختلافات العرقية تتجاوز البنية المورفولوجية الموحدة، كما أن البنى النفسية تخضع في تشكّلها لجملة من العوامل والمؤثرات الخارجية (اجتماعية-تربوية) التي تجعلها متميزة عن بعضها حتى في المجتمع الواحد إضافة إلى تأثير الطبيعة والمناخ والتباعد الجغرافي في التأسيس الثقافي والاجتماعي، وعليه فإن الاختلاف في التشكّل والتأسيس إضافة إلى الوعي بالاختلاف يصبحان خاصّة مميزة للإنسان دون غيره من الموجودات الأخرى التي تقتصر على الاختلاف الطبيعي الناتج عن تأثير البيئة الطبيعية فقط.

3- معنى الانتماء الفكري

قبل التطرق إلى تحديد معنى الانتماء الفكري ودوره في تشكيل الهوية الثقافية الفردية حري بنا الإشارة إلى أهميته في عملية البناء الهوياتي، فإذا كان الانتماء الفكري هو محصلة جملة من الاختيارات الإرادية الواعية التي يتخذها الإنسان في شتى المجالات والقضايا المتصلة بمجتمعه خاصّة وبالوجود الإنساني عامة، فإن الانتماء الفكري يكتسب أهمية بالغة من حيث كونه عاملاً أساسياً مشكلاً للهوية الفردية، فهو يُبلور نظرة الإنسان الخاصة للوجود، ويُسهّم في تشكّل فلسفته الذاتية التي تصنع تفرّده وتميّزه وسط بني مجتمعه وثقافته، كما أن الانتماء الفكري للفرد هو الكفيل بجعل الذات تُدرك موقعها في العالم من خلال إدراك مواطن التوافق مع الغير أو الاختلاف معه، وبإندامه -أي الانتماء الفكري- لن يكون للاختلاف الفكري أي معنى، وما يمكن تأكّده في هذا السياق هو أن الانتماء الفكري مقومٌ أساسي من مقومات الهوية الثقافية الفردية وهو ما يُضفي عليها طابع التفرّد والتمايز.

إذا إنطلقنا من سمة أساسية متأصلة في الإنسان وهي كونه عاقلاً، فإن تفكيره وتأمله العقلي في شتى المشكلات الفكرية هو ما يؤدي إلى تحصيل قناعات واتخاذ مواقف إزاء هذه المشكلات الوجودية، وموقفه المتخذ لا شك أنه يضعه في صفٍّ واحدٍ مع فئة من البشر المفكرين الذين يتشاركون الموقف نفسه، ويمتلكون الرؤية العقلية نفسها إزاء هذه المشكلة، وعليه فإن هذا الموقف المشترك يؤسس لفكرة الانتماء الفكري؛ الذي يأخذ في هذا السياق معنى: الانتساب الطوعي الفكري إلى فئة من البشر تتبنى نسقاً فكرياً أو مذهباً عقلياً أو منهجاً في التفكير.

لكن ينبغي الإشارة إلى فكرة على قدر بالغ من الأهمية مفادها: أن كون إنسانٍ ما يتوافق مع جماعة معينة في بعض التوجهات والمناحي الفكرية فهذا لا يعني ضرورةً أنه ينتهي إلى نسقهم الفكري ويتبنّى كل توجهاتهم الفكرية، وهذا أمر عادي ونتيجة طبيعية لكون الإنسان حري في تفكيره، قد يجد نفسه إزاء مسائل في توافق مع مذهب فكري معين، وفي إشكالات أخرى، قد يتبنى تفسيرات

ورؤى لتوجهات فكرية أخرى قد تكون مخالفة للمذهب أو التوجه الفكري الأول، وهو أمرٌ طبيعي يشكل هوية وخصوصية الإنسان الفكرية.

وفي مُقابل الانتساب الطوعي كمعنى من معاني الانتماء الفكري يُمكن أن نضبط مفهومًا آخر يُخالفه، لكن كثيرًا ما يُوظَّف في سياقاتٍ لغوية على أنه مرادفٌ لمعنى الانتماء الفكري أو على الأقل قريبٌ منه يتمثل في التصنيف، أو بمعنى أدق: التصنيف القصري لفرد أو جماعة في توجهٍ أيديولوجي ما، أو إلصاقهم بمذهب أو منهج عقدي، وهذا التصنيف القصري هو نتاجُ إسقاطِ أحكام الغير على الذات دون معرفةٍ حقيقيةٍ بها، يرتبط هذا التصنيف القصري أساسًا برؤية الغير المخالف، الذي كثيرًا ما يكون عرضةً للوقوع في الأحكام التعسفية أو التمييز السليبي أو التصنيف الإنعزالي، الذي يمارسه فرد أو فئة من البشر على فئة أخرى بدعوى بلوغ الحقيقة، فهذا النوع من التصنيفات القصرية* غير المؤسسة وغير المشروعة يضع البشر في فئات مغلقة بطريقة تعسفية دون الأخذ بعين الاعتبار إمكانية أن يكون الغير المخالف على حق (صن، 2008، صفحة 8)، وهو ما يؤدي إلى إضفاء هوية وهمية على الغير وينفي كل إمكانية لفهمه وإقامة حوارٍ بناء معه، فهو لا يمثل معنى الانتماء حقيقةً، أو يمكن القول عنه أنه إنتماء فكري وهي يحصل بطريقة قصرية لا إرادية، في مقابل الانتماء الفكري الحقيقي الذي يرتبط بالحرية والإرادة.

إن مصدر النظرة السلبية التي تشوب الانتماء الفكري الذاتي وتجعل منه مشكلةً من الناحية الفلسفية هي مسألة رفض الغير للاختلاف ونفي مشروعيته، والتشبُّث برؤيته الأحادية للحقيقة وأفكاره الدغمائية التي تُشكِّل نسقاً فكرياً مغلقاً هي بمثابة سجنٍ للعقل وتقويضٍ لحيثيته، ما يجعل العقل ينزع إلى الجمود، بدل كونه حركةً وسيرورةً خالصةً، تخوض غمار المواضيع الفكرية، وتنتهي إلى تحصيل أفكارٍ ورؤى واضحة في شتى القضايا، وبدل ذلك يقع العقل في فخ القوالب الفكرية الجامدة، التي تُقوِّبُ الحقيقة وتدعي إمتلاكها، وإذا ما تبنت فئة أو جماعة من البشر هذا النوع من التفكير فإنها لا بد وأن ترى العالم وفق "مقاربة انعزالية وتعهد إلى تقسيمه إلى "موالين" و"مخالفين" لها متخذة لنفسها مكانة مركزية في هذا التصنيف، كما تروج لفكرة أساسية مفادها أن الانتماء الفكري "ليست مسألة اختيار، وإنما هي مسألة إدراك للذات" (صن، 2008، صفحة 21) وأن الهوية اكتشاف دون انتقاءٍ منطقي، وعليه يجب الانتماء إليها والدفاع عنها

* فكرة تصنيف البشر إلى فئات يتحدث عنها بإسهاب <أمارتيا صن> (Amartya Sen) في كتابه: الهوية والعنف وهم المصير الحتمي، وللإشارة فإن المؤلف هو عالم إقتصادٍ ومفكر من أصلٍ هندي، قدم إسهامات في اقتصاد الرفاه ونظرية الخيار الاجتماعي، والعدالة الإقتصادية والاجتماعية، تحصل على جائزة نوبل الإقتصادية سنة 1998، من بين كتبه المترجمة إلى العربية: فكرة العدالة، السلام والمجتمع الديمقراطي العقلانية والحرية، إضافة إلى الكتاب المعتمد في بحثنا هذا: المذكور عنوانه أنفا.

وإظهارها على أنها حقيقة، فهذا النوع من الانتماء الذي لم يتأتى نتيجةً للتفكير أو إعمالٍ للعقل وإنما نتيجةً تعطيلٍ ملكة النقد يؤدي في كثير من الأحيان لأن يرى الإنسان نفسه عضواً في جماعةٍ تخوض حروباً لا منتهية ضد كلِّ مُخالفٍ لها في التفكير والانتماء.

تزيد حدة مشكلة الانتماء الفكري عندما يرتبط الأمر بالانتماء العقدي والدين، حيث تتعدد الطوائف والفرق الدينية مختلفةً فيما بينها إزاء تصورها للقضايا الدينية ذات الطبيعة الميتافيزيقية غير القابلة للتحقيق الواقعي أو التجريبي، حيث يتجلى رفض الاختلاف مع الغير المخالف من خلال شيطنته نعتة بالضلال أو حتى تكفيره، ونتيجةً لهذه السلبية في التعامل مع الاختلاف، وعدم الاعتراف بشرعية الغير المُخالف في محاولة الفهم، كثيراً ما أضحت تُثار نقاشاتٌ فكرية حول ما أصبح يُعرف بـ "العنف المقدس" الذي تصبَّغ بصبغةٍ إسلاميةٍ في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، وجاءت هجمات 11 سبتمبر 2001 لتعلن حرباً ثقافيةً بين الهويات الثقافية المختلفة، حيث يُعدّ العنف المقدس أحد محرّكاتها وقد دفع ذلك عديد الفلاسفة والباحثين إلى بحث هذه الظاهرة واستجلاء أبعادها وأسبابها خاصةً وأنها ترتبط مباشرةً بالانتماء العقدي وتأثيره على علاقة الأنا بالغير، ومن بين هؤلاء نجد المفكر اللبناني <علي حرب> الذي أرجع سبب صعود الأصوليات الإسلامية الراديكالية التي تنزع نحو التطرف إلى فشل النماذج السياسية المستوردة في العالم العربي سواءً الاشتراكية منها أو الرأسمالية ما جعل الأصوليات الراديكالية المتطرفة تقدِّم نفسها كبديلٍ للنماذج السياسية-الاجتماعية السابقة (حرب، 2010، صفحة 17) وقد إهتم كذلك المفكر الجزائري <محمد أركون> بظاهرة العنف المقدس ودرسها من زاوية أنثروبولوجية، حيث يعتبرها ظاهرةً مسّت جميع الثقافات والمجتمعات وهي تقوم على الربط بين ثلاثة عناصر هي: العنف، المقدس والحقيقة، وغالباً ما تمنح فرقةً أو طائفةً نفسها شرف الارتقاء إلى الحقيقة المقدسة وتضفي على ذاتها شرعية النضال المسلح ضد الهراطقة المُخالفين، ويُضفون على حربهم صفة العدالة بدعوى الحماية والتطبيق الصارم للشرعية (أركون و مايل، 2008، صفحة 235) كما إهتم غير العرب بدراسة هذه الظاهرة من أمثال المفكر والصحفي الإسباني <خوان غويتيسولو> (Juan Goytisolo) المهتم بالشأن والثقافة العربية الإسلامية، وخصّص لها كتاباً كان ثمرةً مغامراتٍ خطيرةٍ خاضها في بلدانٍ عدةٍ شهدت حروباً أهلية أسماه: "دفاثر العنف المقدس"، حيث يؤكد أن ظاهرة العنف المقدس لا تتشكل إلاً بجملةٍ من الظروف الاجتماعية القاهرة كالجهل، البطالة، الأزمات الاقتصادية والشعور بالضيق، (غويتيسولو، 1996، صفحة 81)

* خوان غويتيسولو: صحفي، مفكر، أديب ومستشرق ألماني، يُعتبر من أشهر الكتاب الإسبان. ولد في برشلونة سنة 1931، تناول كتاباته الآثار العميقة للغة والثقافة العربية في المجتمع الإسباني، توفي بمراكش سنة 2017.

ومن مظاهر تطور العنف المقدس هو اتخاذ شكل التنظيم السياسي-العسكري الممنهج، مثل تنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية داعش، التي لم تُفَرَّق في إستباحة دم الغير المخالف بين المسلمين وغير المسلمين، وما يمكن إجماله من قولٍ في هذا الصدد هو أن ظاهرة العنف المقدس ليست فقط تجلٍ للتطرف في ارتباطه بالانتماء الفكري-العقدي، إنما هي ظاهرة معقدة تتعدد أسبابها ودوافعها الاجتماعية، السياسية والثقافية المنتجة لها، أما عن تأثيراتها العالمية، فتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى ما أُصْطُلِحَ عليه بـ "الإسلاموفوبيا" التي تشير في معناها للغوي إلى الخوف الشديد من الإسلام، أما في معناها الاصطلاحي فهي حركة فكرية سياسية ظهرت في مطلع القرن الواحد والعشرين كردة فعلٍ على ممارسات المسلمين المتطرفين أو "العنف المقدس" التي من بينها -كما ذكرنا سابقاً- تفجيرات 11 سبتمبر 2001، حيث أعلنت بعدها الولايات المتحدة الأمريكية الحرب مباشرةً ضد الإرهاب، لكن لفظة "الإرهاب" هي توصيفٌ له القابلية للإسقاط على كل من تريد الولايات المتحدة الأمريكية أن تخوض حرباً ضده، لأن لفظة "الإرهاب" مثقلةٌ بالدلالات السلبية التي تجعل الذات تستشعر الخوف من الزوال، وبالتالي تكتسب الولايات المتحدة الأمريكية من مواطنيها قبل غيرهم مشروعية استعمال السلاح ضد من صَوَّرَتْهُ على أنه يُشكِّلُ خطراً، وقد وقع توصيف "الإرهاب" هذه المرة على الإسلام والمسلمين وكامل البلاد العربية الإسلامية بذريعة التفجير المشؤوم الذي نفذته أفرادٌ معدودون لجماعةٍ إرهابية منظمة، وكان من نتائج ذلك تدمير دولٍ مسلمةٍ بأكملها بدعوى الإرهاب والتسلح، كما أن لفظة "العدو" لم تعد تعني فرداً من الناس أو منظمةً بعينها، بل صارت تعني منظومة من الأفكار وُصِفَتْ بالإسلام المتطرف* (كوندناني، 2016، صفحة 15)، وما يمكن التأكيد عليه هو أن ظاهرتي العنف المقدس والإسلاموفوبيا أصبحتا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية ظاهرتان متلازمتان يحكمهما قانون الفعل ورد الفعل، إذ لا نكاد نجد دراسةً عن أحد الظاهرتين إلا ونجد ضمنها إشارةً ضمنيةً أو صريحةً للأخرى.

4- البعد الاجتماعي للانتماء

أما في علاقة الفرد بالمجتمع، فإن الانتماء الاجتماعي يمثل أحد الأسس الهامة لتشكيل الهوية الاجتماعية، وهو بهذا المعنى يكون إجابة عن سؤال الهوية في صيغة الجمع: من نحن؟ فالانتماء الاجتماعي هو جملة الروابط التي تشد الفرد إلى مجتمعه، وهذا الانتماء الفردي إلى المجتمع لا يتأتى إلا بواسطة الذهنية المُتَشَكِّلَة: التي تحمل نسقاً متكاملًا من القيم، المنطلقات والرموز الثقافية، الدين والتاريخ فالذهنية الاجتماعية التي تنعكس على الذهنية الفردية تتشكل نتيجة

* فكرة العدو غير المحدد في الحرب على الإرهاب، تحدث عنها المحاضر البريطاني <أرون كوندناني> (Arun Kundnani) في كتابه الذي اعتمدناه "المسلمون قادمون"، وله كذلك كثير من الأبحاث والاهتمامات في موضوع الإسلاموفوبيا.

تفاعل العقول البشرية مع النسق الثقافي المتشكل عبر التاريخ (موران، 2009، صفحة 49). بواسطة التنشئة الاجتماعية، التي تضمن التزام الأفراد بالقيم والقوانين والقواعد الاجتماعية المتعارف عليها وتشبعهم بثقافة المجتمع، كما تجدر الإشارة إلى عملية تلعب دوراً مهماً في الانتماء الاجتماعي الهوياتي تتمثل في إكتساب اللغة، إذ اللغة "ليست أداة تقنية للتخاطب فقط، وإنما هي بالأساس، الوعاء الحضاري للأمم، تحمل العادات والتقاليد والمعارف وأنماط الحياة والتجارب التاريخية المعاشة" (حمدان، 2005، صفحة 33) وبها يكون انتماء الإنسان إلى مجتمعه عن طريق التواصل مع أفراد والتفاعل مع ثقافته.

إن بحث مفهوم الانتماء الاجتماعي يؤدي بنا إلى الحديث عن كيفيات تبلور هذا المعنى في ذهن الفرد، وعليه، سنركز في هذه النقطة على الآليات التي يدرك بها الفرد انتماءه إلى مجتمعه، والإشكال الذي يمكن طرحه في هذا السياق يمكن صياغته كآتي: في أي مرحلة عمرية يبدأ الفرد بإدراك مفهوم الانتماء إلى المجتمع؟ وما هي الآليات التي تسهم في تشكيل هذا المعنى في ذهنه؟ يتبلور مفهوم الانتماء إلى المجتمع بالنسبة للفرد في مرحلة الطفولة المتوسطة، من خلال فهمه لأمرين أساسيين هما: إدراك العلاقات الأسرية ممثلة في روابط الدم والقرباة المتداخلة وإدراك موقعه في هذه الشبكة المعقدة، ومن جهة أخرى، إدراكه لفكرة المشاركة الجماعية أو الفريق والانتماء إليه؛ كشلة الرفاق وفريق كرة القدم، ومع بداية احتكاكه مع غيره من أقرانه في أوساط اجتماعية مختلفة أثناء اللعب أو في المدرسة فإنه يبدأ بتشكيل معنى الغير والتفاعل معه، يتجلى ذلك كلامياً من خلال مقارنة نفسه مع أقرانه وتحصيله معنى المفاضلة؛ الذي يظهر من خلال استعماله لجملته من المقارنات مثل: أنا أفضل، أنا أحسن، أنا أجمل ...، كما يتعلم شيئاً فشيئاً الأخذ بوجهة نظر الغير وتقديرها وفهمها وهو ما سماه علماء النفس "بالتعاطي مع وجهة نظر الآخر" (الريماوي، 2014، صفحة 253)، وما يمكن تحصيله كفكرة هامة هو أن الإنسان في مرحلة الطفولة يحصل كل المفاهيم الأساسية التي ترتبط بمعنى الانتماء الاجتماعي مثل الهوية، المشاركة، معنى الغير، والمفاضلة....

وكما تقدم الإنسان في مراحل العمرية كلما فهم أكثر بنية النسق الاجتماعي الذي يعيش فيه وتأصلت انتماءاته في بناءه ومؤسسته وأصبح أكثر قدرة على الملاحظة والنقد، وفي ظل الحياة الاجتماعية التي تتسم بتعدد العلاقات وتشابكها، يتحتم على الإنسان بصفة متزامنة أداء وظائف

* يتحدث الباحث <محمود عودة الريماوي> بإسهاب عن تشكل مفهوم الانتماء في مرحلة الطفولة المتوسطة والتعاطي مع وجهة نظر الغير في كتابه علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، وتجدر الإشارة إلى أن الباحث مختص في علم نفس النمو، وله العديد من الكتب في هذا المجال من بينها: نمو الطفل ورعايته، في علم نفس الطفل، علم النفس التطوري، علم النفس العام، إضافة إلى الكتاب المعتمد في مقالنا وغيرها من الأبحاث الأكاديمية في علم النفس.

متنوعة ولعب أدوار حياتية مختلفة أساسها تعددية الانتماء الاجتماعي، كإنتماه إلى طبقة اجتماعية، انخراطه في حزب سياسي معين، اتباعه لدين أو طائفة وممارسته رياضة محددة، دون أن يمنعه ذلك من أن يكون أبا وناشطا في جمعيات أو منظمات متعددة، فميزة الإنسان المعاصر هي تعددية الانتماء التي تشكل هويته المتنوعة. (صن، 2008، صفحة 8)

إذا سلمنا بفكرة أساسية مفادها أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه يتميز بكونه متعدد

الانتماءات في مجتمعه، فهل من الممكن أن تكون تعددية الانتماء مشكلة سياسية؟

ليست كل المجتمعات تشكل فيها تعددية الانتماء مشكلة سياسية، فأنموذج الدولة الحديثة مثلا، والقائمة على احترام الحريات والحرص على سيادة القانون بلغ أفراد مجتمعاتها درجة المواطنة التي تقتضي معرفة الحقوق والواجبات وتطبيقها والحرص على الالتزام بالقانون واحترام حق الغير في الاختلاف، لا تشكل فيها تعددية الانتماء مشكلة سياسية، بل يُنظر إلى هذه التعددية على أنها تنوع هوياتي، لكن الأمر يختلف تماما في المجتمعات ذات التراكيب الاجتماعية المتعددة والمعقدة مثل المجتمعات العربية الإسلامية، فعلى الرغم من التأسيس الحديث لدولها إلا أنها لم تستطع تجاوز التنظيمات الاجتماعية القديمة القائمة على القبيلة أو الطائفة أو العشيرة أو العرش، والتي لا تزال تُمارس سلطة على أفرادها من خلال القواعد والأعراف المتوارثة من الأجداد والتي تُلزم أفراد القبيلة أو العرش بالتقيّد بها واحترامها، فالفرد في هذه الحالة يكون مزدوج الانتماء إلى القبيلة والدولة في آن واحد، وعليه يجد نفسه مجبراً على الالتزام بقوانين القبيلة وقوانين الدولة معا، لكن السؤال الذي يمكن طرحه في هذا السياق: ماذا إن كانت قوانين الدولة تتعارض مع القواعد العرفية للقبيلة أو العرش؟ أليست إحدى غايات الدولة هي تجاوز الفكر القبلي والعشائري والرقى إلى مستوى المواطنة؟ وبالتالي فإن قوانينها ستناقض الكثير من قوانين القبيلة؟ في مثل هذه الحالة، هل يلتزم الفرد بقوانين قبيلته ويخالف قوانين الدولة ما يجعله عرضة للعقوبات العدلية؟ أم أنه يلتزم بقوانين الدولة ويتجاوز أعراف قبيلته التي لا تزال تشكل طوق حماية له، فيصير بذلك منبوذاً أو مغضوباً عليه؟ فعندما يصل الاختلاف إلى حد التضاد أو التناقض بين قوانين الدولة وقوانين القبيلة أو العرش نكون حينها في صلب إحدى إشكاليات الانتماء غير متاحة الحلول: المرتبطة أساسا بمشكلات الانتماء الاجتماعي في العالم العربي.

إن إحدى الأفكار الأساسية التي يمكن استلزامها مما سبق هي أن القبيلة أو الطائفة تسعى كل منهما لفرض استمراريتهما من خلال "القبيلة" أو "الطائفية"، وهنا تأتي مشروعية التمييز بين القبيلة و"القبيلة" من جهة، والطائفة و"الطائفية" من جهة أخرى، فالقبيلة تكوين اجتماعي قائم على رابطة الدم والقربا، والعادات والتقاليد الموروثة أما الطائفة فهي تكوين اجتماعي قائم على أساس ديني يحدد المعتقد ونمط الممارسات الدينية أما الطائفية والقبيلية هي نزعات تعصبية تجعل الفرد يقدم ولاءه الكلي للقيم الموروثة والتصورات الطائفية (عبد الحسين، 2017، صفحة

106) فجوهر المشكلة يكمن أساساً في الفكر القبلي أو الطائفي* القائم على التعصب والمؤسس للولاء، والذي يتحدد معناه -أي الولاء- بكونه: حالة دمج بين الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو جماعة.... (عبد الحسين، 2017، صفحة 155) فالولاء تغيب للخصوصية الفردية واختزال لإمكاناتها الوجودية في هوية واحدة هي هوية القبيلة أو هوية الطائفة، كما يغيب فيها النقد العقلي البناء، وبالتالي يصير أفراد الجماعة صوراً متطابقة لَتَمَثِّلُ أيديولوجيا الجماعة، التي تروج لفكرةٍ أساسيةٍ مفادها أن "أمن" و"استقرار" الأفراد يرتبط بـ"قوة" الجماعة، وعليه لا يجب إِخَارُ أي جهدٍ في سبيل سُمُو الجماعة وبقائها. وهذا التوجه في التفكير من شأنه أن يبقي الجميع تحت كنف الجماعة وكل محاولةٍ للإستقلال عن سطوة الجماعة أو التحرر من سلطة عاداتها أو مخالفة توجهاتها الفكرية، تجعل الإنسان عرضةً لأحكامٍ سلبية كنعته بـ"الخائن" أو "المتآمر" أو "غير المسؤول" أو "المتقلب على تاريخه وأجداده" أو حتى تصفيته. وتزيد مشكلة الانتماء الاجتماعي حدة في هذه المجتمعات عندما ترتبط القبلية والطائفية أو الجهوية القائمة على التعصب والولاء بالسياسة، فتكون خدمة القبيلة أو الطائفة أو الجهة وسموها هي الهاجس والغاية الأساسية قبل الوطن حتى أن المناصب السياسية في الدولة ستكون حكراً على أفراد الجماعة أو الجهة بعد الإطاحة بالجماعة الحاكمة التي كانت تخدم مصالح جهة أو جماعة أخرى، فتصير السياسة لعبة محتكرة بيد جماعات وطوائف بدل إتاحة الفرصة لمستحقها من الطبقة المثقفة ممن تتوفر فيهم الوطنية وإرادة الإصلاح ووقع عليهم اختيار الشعب، وعند تولي الحكم فإن السياسة ستكون إقصائية، وهو ما يرسخ أكثر الفكر القبلي والطائفي.

والنتيجة التي نصل إليها من خلال بحث مفهوم الانتماء (سواء الفكري أو الاجتماعي) وما يثيره من إشكالاتٍ في الوطن العربي هو أن العقل العربي مولع بالتصنيفات القصصية والأحكام الإقصائية التي زادت العالم العربي تقسيماً وانعزالاً، وتزداد هذه الإشكالية حدة عندما ترتبط هذه التصنيفات والأحكام بالتطرف الديني، فتؤدي إلى شيطنة الآخر وتكفيره، وهذه الطريقة السلبية في التفكير والتعامل مع الآخر لا نجدها عند العامة فقط، بل يعتمدها العقل السياسي في سياسة بلده والتعامل مع رعيته، وهو ما يفسر تصفية المخالفين من السياسيين والنخب المثقفة واعتبارهم "خطر" يهدد الدولة، بل حتى النخب المثقفة التي تدعي الإيمان بشرعية الاختلاف واحترام رأي المخالف وتطيل الحديث عن الإنفتاح لا نكاد نجدُ صدىً لهذه القيم على أرض الواقع، فهي لم تتعدى حدود الخطاب أو "اليوتوبيا" والحقيقة أن هذه النخب المثقفة تعوم في دوامةٍ من التهمك والسخرية والاستفزاز، تقابلها ردات فعل عدائية من نفس النوع كما نشاهد ذلك كل يوم في الفضاء الأثيري الافتراضي ومواقع التواصل الاجتماعي.

* التمييز بين القبيلة والقبلية، الطائفة والطائفية، مأخوذ عن الباحث <شعبان عبد الحسين> وهو مفكر سياسي عراقي، ولد سنة 1945، متحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم القانونية، خبير في مجال القانون الدولي وحقوق الإنسان.

5- البعد الثقافي للانتماء

كما يتَّسم الإنسان عن غيره بكونه منتجاً للثقافة، التي تتجاوز في معناها الطبيعة المادية لتعني: كل ما أبدعته يد الإنسان، إنها تُعبّر عن كل ما هو صناعي (Artificiel) في مقابل الطبيعي (Naturel)، من جهةٍ أخرى، نجد أن الثقافة تتجاوز الطبيعة البشرية لِتُشَكِّلَ المَظَاهِرَ التَّعْبِيرِيَّةَ عن الحياة الإنسانية، فالحزن والفرح مثلاً عاطفتان أصيلتان في الطبيعة البشرية؛ تلتبسان الإنسان من حينٍ لآخر لأسبابٍ متعدّدة، لكن، كصفات التعبير عنهما كإقامة طقوسٍ جنائزيةٍ أو إقامة مراسيم دالةٍ على الفرح مثلاً هو ما يمثل الجانب الدال على الثقافة الذي يتجاوز الجانب الطبيعي، فالمشاعر الإنسانية مشتركةٌ لدى كل البشر، لكن، كصفات التعبير عنها هو ما يُعبّر عن ثقافتهم ويجعلهم مختلفين، ولا يقتصر مفهوم الثقافة على المظاهر التعبيرية في ارتباطها بالمشاعر الإنسانية فحسب، بل تعني "كل ما ارتقت به الحياة الإنسانية فوق ظروفها الحيوانية" حسب التعبير الفرويدي (فرويد، 1981، صفحة 8) لتشمل كل ما أنتجه الإنسان وعبره عن كينونته في ارتباطاتها الوجودية، وما يمكن إجماله من قولٍ في هذا الصدد هو أن الثقافة في تجاوزها للطبيعة المادية أو الحاجات البيولوجية البشرية ترتبط بالإرادة الواعية الفاعلة؛ التي تجعل من المظاهر الثقافية "نظاماً مُتَّسِقاً (Système Cohérent) مشكّلاً للمعنى".

وإذا كانت الثقافة تتسم بكونها: كل ما أبدعه الإنسان، فإن التنظيم الاجتماعي يصبح جزء من الثقافة الإنسانية، وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى فكرة أساسية مفادها: الارتباط الوثيق بين الهوية الثقافية والتنظيم الاجتماعي الذي يتخذ شكل القوانين والأعراف، العادات والتقاليد، على الرغم من الاختلاف الحاصل بين الأنثروبولوجيين حول أهمية أحدهما بالنسبة للآخر*، حيث يؤكد العديد من البنيويين البريطانيين وبعض علماء الاجتماع الأمريكيين على أن التراث الثقافي مشتق كلية من التنظيم الاجتماعي، بل "إن التركيب الاجتماعي ليس جانباً من جوانب الثقافة فحسب، بل هي الثقافة برمتها لدى شعب من الشعوب منظورا إليها من ضمن إطار نظري خاص"، أما الأنثروبولوجي <برونزلاف مالينوفسكي> (Bronislaw Malinowski) والكثير من علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين فيؤكدون على أهمية النماذج الثقافية بالنسبة للنظم الاجتماعية وما أشكال التنظيم الاجتماعي إلا مجرد "تجسّدات سلوكية للأنماط الثقافية" (غيرتز، 2009، صفحة 320) وما يمكن إجماله من القول في هذا الصدد هو التأكيد على الترابط العضوي الوظيفي بين القواعد الاجتماعية والنظم الثقافية، وانعكاس أحدهما في الآخر بغض النظر عن الأهمية في

* الاختلاف الحاصل بين الأنثروبولوجيين حول أهمية كل من التنظيم الاجتماعي والثقافة يذكره الباحث <كليفور غيرتز> (Cliford Geertz) في كتابه المعتمد في الورقة البحثية، وتجدر الإشارة إلى أن الباحث هو أحد أهم علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين وأكثرهم تأثيراً خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، يعد مؤسس المدرسة التأويلية في الأنثروبولوجيا، وكان لكتابه الذي استعملناه في مقالنا هذا والموسوم بـ "تأويل الثقافات" وقع كبير في عالم الفكر وحقل الأنثروبولوجيا، توفي سنة 2006.

القيمة أو أسبقية أحدهما في التَّشَكُّلِ بالنسبة للآخر، وعليه فإن تمييزنا بين الانتماء الاجتماعي والانتمائي الثقافي في مقالنا هذا هو تمييز نظري فقط، غرضه إيضاح المعاني وتبيان تنوع أبعاد مفهوم الانتماء الهوياتي في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

إن الانتماء الثقافي للفرد يتشكل في الذات البشرية نتيجة التربية، وإذا كان الفيلسوف الألماني <إيمانويل كانت> (Emmanuel Kant) قد ضبط مفهوم التربية بكونها: أنسنة الإنسان، فيمكن ربطها بعنصر الثقافة لتلازم مفهومي التربية والثقافة وعليه يمكننا القول (كإضافة للمفهوم الكانتي) بأن التربية هي أنسنة الإنسان وفق أنموذج ثقافي معين يعكس روح المجتمع المتشكلة عبر التاريخ، فلا تقتصر مهمة التربية على تهذيب سلوك الإنسان وتعليمه أصول الاجتماع البشري فحسب؛ بل تتعدى وظيفتها لتلقين الفرد الخصوصيات الثقافية للمجتمع الذي يعيش فيه وهذه الخصوصيات تتجلى في جملة من الأساسيات، أهمها: أسلوب حياة الجماعة، نظامها القيمي، حدود المقدس وكذا النظام الرمزي الذي يميز ثقافة المجتمع؛ والذي يرتبط باللغة، الدين والرموز التاريخية والثقافية.

وإذا ما أردنا أن نصوغ مفهومًا ثانٍ للتربية يكون مرتبطًا بمفهوم الانتماء الثقافي، فيمكننا القول بأن التربية هي: عملية تَطْبُيعِ الهوية الثقافية الجمعية في الهوية الثقافية الفردية، إذ يمكن تشبيه الإنسان في مرحلته العمرية الابتدائية بالصفحة البيضاء (Tabula rasa)، ثم يُشَكَّلُ المجتمع هويته الثقافية وفق قالبٍ ثقافيٍّ معين، وقد أدرك الفكر اليوناني القديم أهمية العملية التربوية في تشكيل الهوية الثقافية الفردية؛ والتي تقوم أساسًا -أي العملية التربوية- على التَّطْبُيعِ والصلق، ونلاحظ ذلك جليًا من خلال مصطلحاتٍ ثلاثٍ وضعها العقل اليوناني؛ والتي تؤسس لمفهوم التربية في ارتباطه بعملية التطبع الثقافي، وأول هذه المفاهيم: "فوسيس" (Phusis) وتعني المادة أو جملة الاستعدادات الطبيعية التي لها القابلية لإعادة الصياغة والتشكيل والمقصود هنا هي الطبيعة البشرية، ثم يأتي مفهوم "البايديا" (Paideia) ليكمل معنى الفوسيس، والبايديا في أبسط معانيها هي العناية والتربية؛ أو الجهد المبذول في صقل الطبيعة البشرية، وبعبارة أخرى: تقوم "البايديا" باستثمار "الفوسيس" من أجل تكوينٍ فاعلٍ وهادفٍ باعتبارها مفتاح التكوين والتوجيه، لكن عملية التربية في جانبها النظري لا تكتمل إلا من خلال معنى ثالث يتمثل في "الأيديا" (Idea) وهو الأنموذج (التربوي) أو المثال الذي تسير وفقه العملية التربوية، ويرتكز هذا المعنى الأخير على مفهوم التقليد والاحتذاء. (شوقي الزين، 2018، الصفحات 131-134) الذي هو آلية أساسية لترسيخ الهوية الثقافية الجماعية في الهوية الثقافية الفردية وانتماء الفرد إلى نسق ثقافي ما.

إن آلية التقليد والاحتذاء تكرر مفهوم الالتزام؛ وبعبارة أدق: التزام الشخص بقواعد النظام الاجتماعي من خلال مطابقة أفعاله لقواعد السلوك التي تحددها القيم والمثل الثقافية، حتى تتصف سلوكياته الشخصية بالسوية أو "العادية" (Normale) أو ما هو متعارف عليه، وعكس ذلك أن تتصف السلوكات الشخصية للفرد بـ "غير العادية" (Anormale) أو الشاذة عما هو

متعارف عليه في أعراف ذلك المجتمع، فالفرد في مرحلته الحياتية الأولى يتعلم الالتزام الثقافي والاجتماعي من خلال التَّمَثُّلِ والخضوع للقواعد والقيم الثقافية، إذ يسعى جاهداً للانضباط بالقواعد حتى يحظى بالتقدير الذاتي ممن حوله، ولا يحرص على تأمل قواعد النظام الثقافي-الاجتماعي بقدر حرصه على تطبيقها والخضوع لأوامرها وإملاءاتها حتى يُحَصِّلَ الشعور الإيجابي بدوره وانتمائه لثقافته ومجتمعه* (ميكشيلي، 1993، الصفحات 36-45).

وتجدر الإشارة إلى أن قضية الانتماء الثقافي لا تقتصر على عملية التربية فحسب، بل ترتبط كذلك بمسألة التفاعل الثقافي الذي يحدث نتيجة التقاء الهويات الثقافية المختلفة؛ هذا الالتقاء يُمكنُ بدوره الفردَ من اتخاذ مواقفَ من مسألتين أساسيتين: الوافد الثقافي والموروث الثقافي (عمارة، 1997، صفحة 8) ولا يمكننا الحديث عن التفاعل الثقافي في وقتنا الحاضر دون الإشارة إلى العولمة كظرف حضاريٍّ راهنيٍّ؛ أثر تأثيراً مباشراً على الهويات الثقافية في بنائها، تشكيلها وعلاقاتها البينية، وخلق وسطاً تفاعلياً لم يُشْهَد من قبل، والسبب الأساسي في ذلك يرجع إلى الثورة التقنية التي جعلت من فكرة الترابط العالمي (l'interconnectivité mondiale) أمراً ممكناً، فالتقنية تجاوزت الأدوات لتكون شرطاً ضرورياً ومسلماً أساسيةً تستند إليها العولمة، إذ أُخْدِثَتْ ثورةٌ تَوَاصُلِيَّةٌ عالميةٌ؛ مكنت من تغيير مفهوم الاتصال في حد ذاته، إذ جعلته غير مقترنٍ بضرورة الحضور الجسدي والتواجد على مستوى المكان (عماد، 2017، صفحة 208).

فعملية التفاعل الثقافي -كعامل محدد للانتماء الثقافي- لا يُمكن أن تكون متاحة إلا من خلال فكرة التَّوَاصُلِ، التي يترافق معها مسألة تأكيد الانتماء الثقافي، هذا التَّوَاصُلِ إذا اتخذ شكل الحوار أو النقاش سيفتُحُ باب النِّقْدِ على الذات أو رؤية الأنا من خلال الآخر، في مقابل نقد الآخر، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى قوة الهوية الثقافية وصلابتها، كما قد يؤدي إلى زعزعت اليقينيّات والثوابت وإعادة ترتيب المرجعيات التي هي أساس الانتماء الثقافي، وكل ذلك يرتبط بتغير وتطور الهويات الثقافية الفردية والجماعية، لذلك فإن التواصل هو عملية دينامية ترتبط بالبعد

* فكرة الالتزام ودوره في تطبع الهوية الثقافية الجمعية في الهوية الثقافية الفردية مقتبسة من كتاب "الهوية" لـ <أليكس ميكشيلي> (Alex Mucchieli) وهو باحث وأكاديمي فرنسي من مواليد 1943 متحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والسوسيولوجيا، من أشهر كتبه المترجمة إلى اللغة العربية: كتاب الهوية، الذي قام بنقله إلى العربية الأكاديمي السوري <علي وطفة>.

† تغير مفهوم الاتصال وعدم ارتباطه بضرورة الحضور الجسدي على مستوى المكان مأخوذ من كتاب "سوسيولوجيا الهوية" لعبد الغني عماد، وهو مفكر وأكاديمي لبناني، يعد أحد أهم الباحثين وعلماء الاجتماع في العالم العربي، له عديد الأبحاث القيمة في العنف والهوية والسوسيولوجيا.

النفسي، الاجتماعي والثقافي الهوياتي، والسائد أن الهوية الثقافية في زمن العولمة أصبحت ترتبط بعدة مفاهيم من قبيل: عدم اليقين، الليونة والتفتت* (العجيلي وهايدن، 2016، صفحة 324). ولعل <فريدريك جيمسون> (fredric jameson) كان قد تنبه إلى التغيرات الثقافية الحاصلة نتيجة العولمة في فترة ما بعد الحداثة، ما جعله يستحدث مصطلح "المنعطف الثقافي" الذي يطرح جملة من الأسئلة والمشكلات الجديدة التي ظهرت في خضم الانتقال من المحليّة إلى العالمية (العجيلي وهايدن، 2016، صفحة 289) ولعل أهمها كان سؤال الهوية والانتماء الثقافي، فمعايشة الاختلاف مع الغير والتمايز عنه، ترتب عنه طرح سؤال الانتماء الثقافي، الذي يستلزم العودة إلى الذات وطرح جملة من الأسئلة المرتبطة بعملية تشكّل الثقافة في مسارها التاريخي ومنعطفات التشكّل، وصولاً إلى تحصيل صورة شاملة عن الهوية؛ هي بمثابة معرفة الذات بغيره تطویرها؛ من خلال تغيير ما يجب أن يُغيّر، تثبيت ما يجب أن يُثبت وحذف ما يجب أن يُحذف (عماد، 2017، صفحة 161).

ولعل أهم الأدوات الثقافية التقنية التي تُحدث التفاعل الثقافي في زمن العولمة هي ثقافة الصورة التي تفوقت على كل الوسائل الثقافية التقليدية كالقراءة والكتاب، وإذا كانت العولمة تبشّر بزوال الصراع الأيديولوجي، فإنّها في الحقيقة استبدلت الأيديولوجيا بالفيديولوجيا (Vediologie) التي تدعي تصوير الواقع ومحاكاته، لكنها في كثير من الأحيان تحمل رسائل مُضمرة: تتصف بتعددية القراءة وإحتمالية التأويل وتصور نماذج ثقافية نمطية كما نُشاهد في الأفلام الهوليودية التي لا تكاد تخلو من إشارات وإيماءات أيديولوجية، كتصوير أمريكا على أنها خلاص العالم من كارثة مُحتملة، أو تصوير الإسلام على أنه أصل الإرهاب والتخلف، أو تصوير الأمريكي على أنه إنسان مثالي يعيش حياة مُترفة قوامها المال والجنس فالفيديولوجيا كما يقول الأستاذ <عبد الغني عماد>: <<أكثر ضبابية وأقل وثوقية من الأيديولوجيا السياسية التقليدية>> (عماد، 2006، صفحة 290). ولعل خلق نماذج ثقافية نمطية يؤدي في كثير من الأحيان إلى صراع ثقافي، وما ظاهرة الإسلاموفوبيا التي انتشرت في العالم خاصة أوروبا وأمريكا إلّا نتاج الإعلام الذي زوَّج بين صورتَي الإسلام والإرهاب، وخلق صورة نمطية تحجب كل ما هو إيجابي في الإسلام، فوسائل الإعلام والاتصال خلقت عالماً موازاً قوامه الصورة، أضى بمثابة المرجع الرئيسي لاتخاذ أي موقف

* فكرة ارتباط صفتي الصلابة والليونة بالهوية في زمن العولمة يتحدث عنها الباحث <شمسي العجيلي> وهو محاضر في علم الاجتماع بجامعة فكتوريا في نيوزيلاندا، من مؤلفاته: من الشيوعية إلى ما بعد الحداثة، والباحث <باتريك هايدن> (Patrick Hayden) وهو محاضر في كلية العلاقات الدولية في جامعة أندروز بالملكة المتحدة، من مؤلفاته: كونية السياسة العالمية في كتابهما المعتمد في هذا المقال، والذي عنوانه: "النظريات النقدية للعولمة".

+ <فريدريك جيمسون> ناقد أدبي أمريكي ومنظر سياسي، من مواليد سنة 1934، اشتهر في مجال تحليل الاتجاهات الثقافية المعاصرة.

من هوية ثقافية، وهذا من شأنه أن يكون عائقاً في سبيل إقامة علاقة أنطولوجية حقيقية بين الأنا والآخر.

وإذا سلمنا أن الصور الإعلامية تحمل في ثناياها رموزاً ثقافية تعكس هوية ثقافية وانتماءً ثقافياً معيناً فإن المشاهدة المستمرة لهذه الصور تؤدي إلى تشكل منظومة من الرموز ذات البعد الثقافي في ذهن المتلقي والتي تعمل شيئاً فشيئاً على هندسة المخيال من خلال الصور العالقة في الذهن، هذه المنظومة من الرموز تشكل هوية رمزية (Identité symbolique) (عماد، 2006، الصفحات 290-291) قد تُخربُ الشعور بالانتماء إليها، وإذا كان الإنتاج الثقافي الرمزي من جهة واحدة فهو يبرئ لفكرة تنميظ الثقافة والإمبريالية الثقافية، وما يمكن إجماله من القول في هذا السياق هو أن الانتماء الثقافي في زمن العولمة أزال "الأقلمة" كشرط من شروط الانتماء للهوية الثقافية، من خلال "فقدان العلاقة الطبيعية ما بين الثقافة والجغرافيا والأقاليم الإجتماعية" (العجيلي وهايدن، 2016، صفحة 290).

6- تقاطع أبعاد الانتماء وتشكل الهوية الفردية

إن تشكل الهوية الفردية هو نتاج تفاعل أبعاد الانتماء الثلاث الفكرية، الاجتماعية والثقافية، لكن التفاعل في هذا السياق هو عملية دينامية معقدة يتوجب الوقوف عندها بالتحليل والتوضيح، فتفاعل الهوية الفردية مع الأنساق الفكرية، الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما يكون عن طريق التنشئة الاجتماعية والتعايش مع المجتمع أو الجماعة في المراحل العمرية الأولى من حياة الإنسان، لأن هذه الفترة هي الكفيلة بحدوث عملية تطبيع معالم الهوية الثقافية الجمعية في الهوية الفردية للشخص من خلال اليتين نفسييتين تربويتين هما التقليد والالتزام، لكن، هل يعني التطبيع في هذا السياق: الانعكاس التام للهوية الثقافية الجمعية في الهوية الثقافية الفردية؟

في خضم الحديث عن تشكل الهوية الثقافية الفردية لا يمكن أن يأخذ التطبيع معنى الانعكاس التام أو ذوبان الهوية الثقافية الفردية في الهوية الثقافية الجمعية، لأن الإنسان تفرّد يأبى الذوبان والانحلال في نسق ثقافي، وتفرّده أو تمايزه لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال عملية تأمل فكري، نقد بناء وحفر دؤوب في الأنساق الثقافية-الاجتماعية المتشكّلة عبر التاريخ، ويستلزم ذلك إعادة قراءة التاريخ الثقافي للجماعة، والوقوف بالتحليل عند المقومات المتشكّلة للنسق الثقافي مثل اللغة، الدين وتاريخ الجماعة، حتى يتمكن من فهم الأحداث والمنعطفات التي أدت إلى التشكل وفق نمط ثقافي معين دون غيره من الأنماط الثقافية، وهو في كل ذلك يخوض غمار البحث عن الحقيقة في التاريخ، المقدّس والثقافة، يعيش قلقاً وجودياً نتيجة تعرية الأسس وكشف المتبّس والمسكوت عنه في التاريخ الثقافي وبحث القضايا التي لُقنت له على أنها يقين مقدّس يحرم الخوض فيها والبحث عنها، ويكون من نتاج ذلك: تحصيل جملة المواقف والاختيارات التي تصنع هويته الفردية المتميزة عن غيرها من الهويات المغايرة.

كما يُمكننا التأكيد في هذا السياق على فكرةٍ أساسيةٍ مفادها أن تشكّل الهوية الفردية هو عمليةٌ بناءٌ غيرٍ منتهٍ، إذ الإنسان المُفكّرُ، المُشغَلُ ببناء ذاته، يعيش طيلة حياته مشغولاً بجملةٍ من الأزمات والمشكلات الفكرية المستجدة، ولا يزيدُ نتاج هذا الجهد العقلي الدؤوب ذاته الواعية إلا صقلاً وهويتهُ تمايزاً، لكن، لا يمكن الجزم بأن كل الذوات في وقتنا الحاضر تخوض غمار تجربة التفكير العقلي الممنهج في المشكلات الوجودية الراهنة أو قضايا الموروث الثقافي والهوية الثقافية، إذ الكثير من العقول في الظرف الراهن تأخذ الموروث الثقافي على أنه جملةٌ من المسلمات تأتي الشك، أو تُوسّع دائرة المقدس لتُقجّم ضمنها غير المقدس من الروايات التاريخية أو حتى الخرافات، أما فهمها للقضايا التي يفرضها الراهن، فهو فهمٌ بسيط لا يتجاوز كونه تحليلاً سطحياً، وما يُمكن أن نستنتجه ونؤكد عليه من هذا التحليل البسيط هو أن هوية الفرد المتميزة ليست معطى جاهزاً بقدر ما هي نتاج جهد عقلي يتسم بالوعي والاستمرارية.

7- خاتمة:

صحيح أن تشكّل الهوية الفردية هو نتاج تقاطع جملةٍ من الأبعاد والانتماءات، لكن، لا يمكن أن نُصنفها في نفس الدرجة من حيث القيمة، إذ الانتماء الفكري هو نتاج إختياراتٍ إراديةٍ ووعيٍ بناءٍ ومُحصلةٍ صقلٍ ذاتيٍّ مستمر، في حين أن الكثير من الانتماءات الأخرى التي تُشكّل جوانب الهوية هي إنتماءاتٌ طبيعية لا إرادية كالانتماء العرقي والانتماء الجغرافي، وعليه فإن جملة الانتماءات والاختيارات الفكرية تكتسب مكانةً أعلى بالنسبة لغيرها من الانتماءات لأنها ترتبط بجهدٍ فكريٍّ يلزم الإنسان طيلة حياته، فالانتماءات الفكرية والعقدية عندما تكون إختياراتٍ واعيةً تجعل الإنسان مبتعداً عن الغلو وردّات الفعل العصبية والعنيفة، كما تجعل الذات تُدرك معنى الاختلاف، قيمته وشرعيته، بخلاف من يعبّرُ قناعاته الموروثة تمثلاً للحقيقة، فيجعله ذلك منغلِقاً على ذاته، رافضاً كل محاولةٍ جادةٍ لفهم الغير المختلف عنه، وهو بمثل هذه الصفات السلبية يكتسب القابلية لأن يكون أداةً في يد الحركات الفكرية والسياسية المتطرفة والقوى الضاغطة، حيث تستثمر في العقول المغلقة التي تعتبر نفسها الوريث الشرعي للحقيقة المطلقة من خلال إنتماءاتها الفكرية الموروثة.

وتجدربنا الإشارة في هذا السياق إلى أهمية القراءة كأداةٍ ثقافيةٍ فاعلةٍ في عملية بناء الهوية الثقافية الفردية، إذ على الرغم من توفّر وسائل ثقافيةٍ جديدةٍ أتاحها التقنية؛ تساهم في تشكيل الهوية الثقافية الفردية والجمعية بشكلٍ فعّالٍ من خلال ثقافة الصورة والفيديولوجيا -كما يسميها عبد الغني عماد- إلا أن هذه الأدوات الثقافية الجديدة على الرغم من سهولة التلقي إلا أنها لا تخلوا من ألعيب البروباغاندا المُغالطة، المُظِلّة والمُوجّبة للرأي العام؛ والتي تسعى دائماً إلى قولبة الحقيقة وفق قالبٍ أيديولوجيٍّ معيّن، وجعلها تخدمُ مصالحَ معينة، وهنا تكمن قوة القراءة كأداةٍ ثقافيةٍ على الرغم من قدمها، إذ أن ثقافة الصورة في نقلها للأحداث وعرض مختلف القضايا تُوثّق بإحكام طريقة العرض من خلال قوة الصورة وتلاعبات اللغة ما لا يترك مجالاً للشك في

القضايا المعروضة ونقدها، في حين أن القراءة تجعلنا نتعامل مع قضايا فكرية مجردة يسهل تحليلها منطقياً بعيداً عن العواطف المتأصلة في الصورة، كما أن القراءة هي أداة أساسية للتعرف على الذات الثقافية وسبر غورها، إذ تجعل من عملية التواصل مع الموروث الثقافي أمراً ممكناً وتُضفي عليه القابلية للبعث وإعادة الفهم في الظرف الراهن.

إن الانتماء الفكري القائم على الوعي، المبني بأدوات ثقافية متينة كالقراءة يكون أكثر تحرراً ومجابهةً للأنماط الاجتماعية-الثقافية القمعية، إذ النظام الثقافي-الاجتماعي الذي أسسته الجماعة وفق آليات مواضعاتية تراكمية يُمارسُ سلطةً على أفرادِهِ، من خلال التشديد على امتثال الفرد للأعراف والتقاليد الاجتماعية التي يبتكرها المجتمع لترسيخ معالمه الثقافية، وكل من لا يمتثل لسلطة النظام الاجتماعي في سلوكه أو فكره يُعتبر غير سوي أو شاذ أو حالة مرضية تعقبها رداً فعلي اجتماعية مثل النبذ والعقاب أو عدم الاحترام وغيرها من العقوبات الاجتماعية التي وُجدت من أجل تثبيت النظام الثقافي-الاجتماعي والدفاع عنه ضد كل مخالفٍ، لكن، على الرغم من السلطة الاجتماعية التي تسعى لإذابة الفرد في النسق الثقافي-الاجتماعي، إلا أن الوعي الفردي كفيلٌ بمنح الإنسان القدرة على قول "لا" لكل ما يراه ظلماً أو غير معقولٍ، خاصةً وأن الكثير من الأعراف الاجتماعية التي توجب على الأفراد الخضوع لسلطتها لم تراعي في تأسيسها لا العقل ولا الدين، بل تشكلت في سياقاتٍ اجتماعية خاصة ثم تم تعميمها والتعامل معها كمعيارٍ يضبط الأفعال الاجتماعية، وما يمكن إجماله من قولٍ في هذا السياق هو أن هنالك علاقةً طرديةً بين القراءة، الانفتاح وصقل الهوية الفردية، فكلما اشتغل الإنسان أكثر على القضايا الفكرية، الثقافية، الاجتماعية والتاريخية التي تخص مجتمعه كلما زادت مواقفه تفرّداً وتحرراً أكثر من أنماط السلطة الاجتماعية غير المبررة، وكلما ابتعد الإنسان عن الاشتغال بجملة القضايا التي تمس ذاته وانتماءاته كلما أصبح أكثر عرضةً للوقوع في فخ الإنغلاق، التطرف والتوظيف الآداتي من قبل الجماعات السياسية والحركات المتطرفة.

8-قائمة المصادر والمراجع

- إدغار موران. (2009). *النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية* (الإصدار الطبعة الأولى). (هنا صبحي، المترجمون) أبو ظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة).
- آرون كوندناني. (2016). *المسلمون قادمون؟ الإسلاموفوبيا والتطرف والحرب الداخلية على الإرهاب* (الإصدار الطبعة الأولى). (شكري مجاهد، المترجمون) الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية.
- أليكس ميكشيللي. (1993). *الهوية* (الإصدار الطبعة الأولى). (علي وطفة، المترجمون) سوريا: دار الوسيم للخدمات الطباعة.
- أمارتيا صن. (2008). *الهوية والعنف وهم المصير/الحتمي* (الإصدار الطبعة الأولى، المجلد عالم المعرفة). (سحر توفيق، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- جون بول سارتر. (2009). الكينونة والعدم بحث في الأنطولوجيا والضمونولوجيا (الإصدار الطبعة الأولى). (نقولا متيني، المترجمون) لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- خوان غويتيسولو. (1996). دفاتر العنف المقدس سراييفو. الجزائر. غزة-أريحا. الشيشان (الإصدار الطبعة الأولى). (طلعت شاهين، المترجمون) القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.
- سيغموند فرويد. (1981). مستقبل وهم (الإصدار الطبعة الثالثة). (جورج طراييشي، المترجمون) لبنان: دار الطليعة.
- شعبان عبد الحسين. (2017). الهوية والمواطنة البدائل الملتبسة والحدثة المتعثرة (الإصدار الطبعة الأولى). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- شمسي العجيلي، و باتريك هايدن. (2016). النظريات النقدية للعمولة (الإصدار الطبعة الأولى). (هيثم غالب الناهي، المترجمون) لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الغني عماد. (2006). سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحدثة إلى العمولة (الإصدار الطبعة الأولى). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الغني عماد. (2017). سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكيك وإعادة البناء (الإصدار الطبعة الأولى). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- علي حرب. (2010). المصالح والمصائر صناعة الحياة المشتركة (الإصدار الطبعة الأولى). الجزائر العاصمة: منشورات الاختلاف.
- علي حمدان. (2005). إشكالية الهوية والانتماء (الإصدار الطبعة الأولى، المجلد سلسلة الأستراليون العرب). أستراليا: المركز الأسترالي العربي للدراسات السياسية.
- كليفور غيرتز. (2009). تأويل الثقافات (الإصدار الطبعة الأولى). (محمد بدوي، المترجمون) لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد أركون ، و جوزيف مايلا. (2008). من منهاتن إلى بغداد ما وراء الخير والشر (الإصدار الطبعة الأولى). (عقيل الشيخ حسين، المترجمون) بيروت: دار الساقي.
- محمد شوقي الزين. (2018). نقد العقل الثقافي (الإصدار الطبعة الأولى). لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- محمد عمارة. (1997). الانتماء الثقافي (الإصدار الطبعة الأولى، المجلد سلسلة: في التنوير الإسلامي). مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمود عودة الريماوي. (2014). علم نفس النمو الطفولة والمراهقة (الإصدار الطبعة الثالثة). الأردن: دار المسيرة للطباعة والنشر.